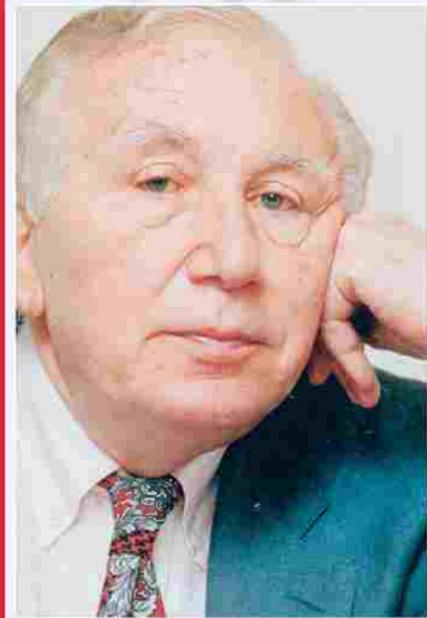




نزار قباني.. عاشق دمشق



شاعر لا يتكرر ملء الدنيا بشعره، وهو واحد من أكبر شعراء العربية المعاصرين كتب الغزل ووصف دمشق ومآذنها وأزقتها وكتب عن هموم الأمة العربية. تميزت قصائده بلغة سهلة وجدت بسرعة ملايين القراء في أنحاء العالم العربي.

ولد نزار قباني في 21 آذار/مارس 1923 في حي مئذنة الشحم.. أحد أحياء دمشق القديمة من أسرة دمشقية عريقة إذ يعد جده أبو خليل القباني رائد المسرح العربي. يقول عن نفسه: «ولدت في دمشق في آذار/مارس 1923

بيت وسيع، كثير الماء والزهر، من منازل دمشق القديمة، والذي توفيق القباني، تاجر وجيه في حيه، عمل في الحركة الوطنية ووهب حياته وماله لها. تميز أبي بحساسية نادرة وبهبة للشعر ولكل ما هو جميل. ورث الحس الفني المرهف بدوره عن عمه أبي خليل القباني الشاعر والمؤلف والمحسن والممثل وبأذر أول بذرة في نهضة المسرح المصري. امتازت طفولتي بحب عجيب للاكتشاف وتفكيك الأشياء وردها إلى أجزائها ومطاردة الأشكال النادرة وتحطيم الجميل من الألعاب بحثاً عن المجهول الأجل. عنيت في بداية حياتي بالرسم. فمن الخامسة إلى الثانية عشرة من عمري كنت أعيش في بحر من الألوان. أرسم على الأرض وعلى الجدران وأطبخ كل ما تقع عليه يدي بحثاً عن أشكال جديدة. ثم انتقلت بعدها إلى الموسيقى ولكن مشاكل الدراسة الثانوية أبعثتني عن هذه الهواية. وكان الرسم والموسيقى عاملين مهمين في تهيئتي للمرحلة الثالثة وهي الشعر. في عام 1939، كنت في السادسة عشرة. توضح مصيري كشاعر حين كنت وأنا مبحر إلى إيطاليا في رحلة مدرسية. كتبت أول قصيدة في الحنين إلى بلادي وأذعتها من راديو روما. ثم عدت إلى استكمال دراسة الحقوق.

تخرج نزار قباني في كلية الحقوق بدمشق 1944، ثم التحق بالعمل الدبلوماسي، وتقلد خلاله بين القاهرة، وأنقرة، ولندن، ومدريد، وبكين، ولندن. عمل فور تخرجه بالسلك الدبلوماسي بوزارة الخارجية السورية، وتقلد في سفاراتها بين مدن عديدة، خاصة القاهرة ولندن وبيروت ومدريد، وبعد إتمام الوحدة بين مصر وسوريا عام 1959، تم تعيينه سكرتيراً ثانياً

للجمهورية المتحدة في سفارتها بالصين. وظل نزار متمسكاً بعمله الدبلوماسي حتى استقال منه عام 1966. تناولت دواوينه الأربعة الأولى قصائد رومانسية. وكان ديوان (قصائد من نزار قباني) الصادر عام 1956 نقطة تحول في شعر نزار قباني، حيث تضمن هذا الديوان قصيدة (خبز وحشيش وقمر) التي انتقدت بشكل لاذع خمول المجتمع العربي. طالب رجال الدين في سوريا بطرده من الخارجية وفضله من العمل الدبلوماسي في منتصف الخمسينيات، بعد نشر قصيدة الشهيرة (خبز وحشيش وقمر) التي أثارت ضده عاصفة شديدة وصلت إلى البرلمان.

كان يتقن اللغة الإنجليزية، خاصة وأنه تعلم تلك اللغة على أصولها، عندما عمل سفيراً لسوريا في لندن بين عامي 1952 - 1955. تميز قباني أيضاً بنقده السياسي القوي، من أشهر قصائده السياسية (هوامش على دفتر النكسة) 1967 التي تناولت هزيمة العرب على أيدي إسرائيل التي سميت بالنكسة. من أهم أعماله: (حببيتي) 1961، (الرسم بالكلمات) 1966، و(قصائد حب عربية) 1993. وفي ربيع 1966، ترك نزار العمل الدبلوماسي وأسس في بيروت داراً للنشر تحمل اسمه (منشورات نزار قباني)، وتفرغ للشعر. وكانت ثمرة مسيرته الشعرية إحدى وأربعين مجموعة شعرية ونثرية، كانت أولها (قالت لي السمراء) 1944، وكانت آخر مجموعاته (أنا رجل واحد وأنت قبيلة من النساء) 1993.

نقلت هزيمة 1967 شعر نزار قباني نقلة نوعية: من شعر الحب إلى شعر السياسة والرفض والمقاومة؛ فكانت قصيدته (هوامش على دفتر النكسة) 1967 التي كانت نقداً ذاتياً جارحاً للتصوير العربي، مما أثار عليه غضب اليمين واليسار معاً.

توفي في الثلاثين من نيسان/أبريل 1999. وقد طبعت جميع دواوين نزار قباني ضمن مجلدات تحمل اسم (المجموعة الكاملة لنزار قباني)، وقد أثار شعر نزار قباني الكثير من الآراء النقدية والإصلاحية حوله، وألقت حوله العديد من الدراسات والبحوث

الأكاديمية وكتبت عنه كثير من المقالات النقدية.

قال النقاد عن نزار أنه (مدرسة شعرية) و(حالة اجتماعية وظاهرة ثقافية) وأسماء حسين بن حمزة (رئيس جمهورية الشعر). كما لقبه (أحد آباء القصيدة اليومية): إذ قرّب الشعر من عامة الناس. الأديب المصري أحمد عبد المعطي حجازي وصف نزار بكونه «شاعر حقيقي له لغته الخاصة، إلى جانب كونه جريئاً في لغته واختيار موضوعاته»، لكنه انتقد هذه الجراءة التي وصلت في المرحلة الأخيرة من قصائده لما يشبهه السباب». الشاعر علي منصور قال إن نزار قد حضر اسمه في الذاكرة الجماعية، وأنه شكل حالة لدى الجمهور «حتى يمكن اعتباره عمر بن أبي ربيعة في العصر الحديث».

له أيضاً دور بارز في تحديث مواضيع الشعر العربي (الحديث) إذ ترأس طقوس الندب السياسي وكذلك لغته، إذ كان نزار مع الحدأة الشعرية، وكتب بلغة أقرب إلى الصحافة تصدم المتعود على المجازات الذهنية الكبرى. وقد ألقت حدائته بظلال كثيفة على كل من كتب الشعر، وذلك لكون قصائد نزار سريعة الانتشار.

من ناحية ثانية، كانت قصيدته «خبز وحشيش وقمر» سبباً بجداول ضخم انتشر في دمشق ووصل حتى قبة البرلمان، نتيجة اعتراض بعض رجال الدين عليه ومطالبتهم بقتله، فما كان منه إلا أن أعاد نشرها خارج سوريا، وقيل ذلك عام 1946 كتب الشيخ رفاعة الطهطاوي في القاهرة عام 1946، مقالة جاء فيها:

«كلامه مطبوع على صفة الشعر، لكنه يشمل على ما يكون بين الفاسق والقارح والبيغي المتمرسة الوهجة»، وقال أيضاً: «في الكتاب تجديد في بحور العروض، يختلط فيه البحر البسيط والبحر الأبيض المتوسط، وتجديد في قواعد النحو، لأن الناس ملّوا رفع الفاعل ونصب المفعول»، رغم ذلك فقد قررت محافظة دمشق تسمية الشارع الذي ولد فيه على اسمه، وحينها قال نزار إثر قرار المحافظة:

هذا الشارع الذي أهدته دمشق إليّ، هو هدية العمر وهو أجمل بيت أمتلكه على تراب الجنة. تذكروا أنني كنت يوماً ولداً من أولاد هذا الشارع لعبت فوق حجارتها وقطفت أزهاره، وبللت أصابعي بماء نوافيره.

ما يثير الانتباه في شعرية نزار قباني هذا الحضور العنيف للمكان. وعلى وجه التحديد حضور دمشق المدينة التي ما فتئت تحفر في صورته وجسده. المكان الذي لا يستطيع نزار التملص من سلطوته واستجواذه.

مأذن الشّام تبكي إذ تعانقني
وللمأذن كالأشجار أرواح
للياسمين حقول في منازلنا
وقطة البيت تغفو حيث ترتاح
طاحونة البن جزء من طفولتنا
فكيف أنسى؟ وعطر الهيل فواح
هذا مكان (أبي المعتز) منتظر
ووجهه (فائزة) حلّو ولماح
هنا جدوري هنا قلبي هنا لغتي
فكيف أوضح؟ هل في العشق إيضاح؟
كم من دمشقية باعت أساورها
حتى أغازلها والشعر مفتاح
أنت يا شجر الصفصاف معتدراً
فهل تسامح هيفاء ووضاح؟
خمسون عاماً وأجزائي مبعثرة
فوق المحيط وما في الأفق مصباح
تقاذفتني بحار لا ضفاف لها
وطاردتني شياطين وأشباح
أقاتل القبح في شعري وفي أدبي
حتى يفتح نوار وقداح
ما للعروبة تبدو مثل أرملة؟
أليس في كتب التاريخ أفرح؟
والشعر ماذا سيبقى من أصالته؟
إذا تولاه نصاب ومداخ؟
وكيف نكتب والأقفال في فمنا؟
وكل ثانية يأتيك سفاخ؟
حملت شعري على ظهري فاتعبنى
ماذا من الشعر يبقى حين يرتاح؟

من مفكرة عاشق دمشق

فرشت فوق ثراك الطاهر الهدبا
فيا دمشق... لماذا نبدا العتبا؟
حببيتي أنت... فاستلقي كأغنية
على ذراعي، ولا تستوضحي السببا
أنت النساء جميعاً.. ما من امرأة
أحببت بعدك.. إلا خلتها كذبا
يا شام، إن جراحي لا ضفاف لها
فمسخي عن جبيني الحزن والتعبا
وأرجعيني إلى أسوار مدرستي
وأرجعي الحبر والطبشور والكتبا
تلك الزواريب كم كنز طمرت بها
وكم تركت عليها ذكريات صبا
وكم رسمت على جدرانها صوراً
وكم كسرت على أدرجها لعبا
أنت من رحم الأحزان... يا وطني
أقبل الأرض والأبواب والشهبا
حبي هنا.. وحببياتي ولدن هنا
فمن يعيد لي العمر الذي ذهباً؟
أنا قبيلة عشاق بكاملها
ومن دموعي سقيت البحر والسحبا
فكل صفصافة حولتها امرأة
وكل منذنة رصعتها ذهباً
هذي البساتين كانت بين أمتعي
لما ارتحلت عن الفيحاء مغتربا
فلا قميص من القمصان ألبسه
إلا وجدت على خيطانه عنبا
كم مبحر.. وهموم البر تسكنه
وهارب من قضاء الحب ما هربا
يا شام، أين هما عينا معاوية
وأين من زحموا بالمنكب الشهبا
فلا خيول بني حمدان راقصة
زهوا... ولا المتنبى مائل حلبا
وقبر خالد في حمص نلامسه
فيرجف القبر من زواره غضبا
يا رب حي.. رخام القبر مسكنه
ورب ميت.. على أقدامه انتصبا
يا ابن الوليد... ألا سيف توجره؟
فكل أسيفنا قد أصبحت خشبا
دمشق، يا كنز أحلامي ومروحتي
أشكو العروبة أم أشكو لك العربا؟
أدمت سياط حزيران ظهورهم
فأدمنوها.. وباسوا كف من ضربا
وطالعوا كتب التاريخ.. واقتنعوا
متى البنادق كانت تسكن الكتبا؟
سقوا فلسطين أحلاماً ملونة
وأطعموها سخيف القول والخطبا
وخلفوا القدس فوق الوحل عارية
تبيح عزة... لمن رغبا..
هل من فلسطين مكتوب يطمئني
عمن كتبت إليه.. وهو ما كتبا؟
وعن بساتين ليمون، وعن حلم
يزداد عني ابتعاداً.. كلما اقتربا
أيا فلسطين.. من يهديك زنبقة؟
ومن يعيد لك البيت الذي خربا؟
شردت فوق رصيف الدمع باحثة
عن الحنان، ولكن ما وجدت أباً..
تلذتي... تجدينا في مبادلنا..
من يعبد الجنس، أو من يعبد الذهبا
فواحد أعمت النعمى بصيرته
فانحنى وأعطى الغواني كل ما كسبا
وواحد ببحار النفط مغتسل
قد ضاق بالخيش ثوباً فارتدى القصبا
وواحد نرجسي في سريرته
وواحد من دم الأحرار قد شربا
إن كان من ذبحوا التاريخ هم نسبي
على العصور.. فإني أرفض النسبا
يا شام، يا شام، ما في جعيتي طرب
أستغفر الشعر أن يستجدي الطربا
ماذا سأقرأ من شعري ومن أدبي؟
حواضر الخيل داست عندنا الأدبا
وحاصرتنا.. وأذتنا.. فلا قلم
قال الحقيقة إلا اغتيل أو صلبا
يا من يعاتب مذبحاً على دمه
من جرب الكي لا ينسى مواجعه
حبل الفجيجة ملتف على عنقي
من ذا يعاتب مشنوقاً إذا اضطربا؟
الشعر ليس حمامات نظيرها
نحو السماء، ولا نايأ.. وريح صبا
لكنه غضب طال أظافره
ما أجن الشعر إن لم يركب الغضبا

يقول: «لا أستطيع أن أكتب عن دمشق، دون أن يُعرّش الياسمين على أصابعي.

ولا أستطيع أن أنطق اسمها، دون أن يكتظّ فمي بعصير المشمش، والرمان، والتوت، والسفرجل.

ولا أستطيع أن أتذكرها، دون أن تحطّ على جدران ذاكرتي ألف حمامة.. وتطير ألف حمامة..

تتوغّل «دمشق» في لغة الشاعر، إلى حدّ أنّ أبجديتها ليست إلا صورة، تمثيلاً لكائنات المكان:

«كل حروف أبجديتي مقلّعة حجراً حجراً من بيوت دمشق... وأسوار بساتينها، وفسيخاء جوامعها...»

قصائدي كلها معمّرة على الطراز الشامي.. كل ألف رسمتها على الورق هي مئذنة دمشقية..

كل ضمة مستديرة هي قبّة من قباب الشام.. كل حاء هي حمامة بيضاء في صحن الجامع الأموي..

كل عين هي عين ماء.. كل شين هي شجرة مشمش مزهرة..

كل سين هي سنبله قمح.. كل ميم هي امرأة دمشقية.. وما أكثر الميمات في دواوين شعري..

وهكذا تستوطن دمشق كتابتي، وتشكّل جغرافيتها جزءاً من جغرافية أدبي..»